مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
Eissn :2600-6405 Issn : 2353-0472
المجلد 1/ العـدد: 04 (2014)، ص 76- 110

# سجون مغلقة أم فضاءات مفتوحة على التسامح الديني

أ.مباركي نادية[1]

[1]-قسم التاريخ –جامعة الجزائر- الجزائر

تاريخ الاستلام: 2014/11/01 تاريخ القبول: 23 /2014/11 تاريخ النشر: 2014/12/01

مقدمة:

**إن قضية الأسري المسيحيين بالجزائر خلال العهد العثماني من القضايا التي تحفل بها المصادر الغربية القديمة منها، والحديثة [1] ذلك بدءا من القرن 10 هـ (16م) حيث تفنن الرحالة ، ورجال الدين سواء كانوا أنفسهم أسري ، أم مكلفين بفداء الأسري بوصف الظروف المزرية والبائسة التي كان يعيشها الأسري المسيحيين فيما أسموه بعاصمة اللصوصية، وجحيم النصارى مدينة الجزائر على غرار كتابات الأب البنديكتي هايدو في القرن 10 هـ (16م)من خلال كتابه طبوغرافيا وتاريخ الجزائر العام( Topographie et Histoire Générale d'Alger )، وكذا كتابه عن حياة الأسري بمدينة الجزائر ( De la Captivité à Alger) الذي يحفل بصور التعذيب، والتنكيل التي كانوا**

**عرضة لها على يد برابرة متوحشين.ونفس الشيء ذهب إليه الأب دان (DAN) خلال القرن11 هـ (17م) في كتبه؛ حيث نجده في كتابه بعنوان تاريخ بربرية وقراصنتها( Histoire de Barbarie et de ses Corsaires) وكتابه حول مشاهير الأسري( Les plus illustres captifs) يتفنن في وصف صور التعذيب التي كان الأسري المسيحيين عرضة لها في الجزائر، والتي تصور معاملة الأسرى بالوحشية، و اللإنسانية، و بالتعذيب المستمر، و التفنن في التنكيل بهم، ومما ذكره على سبيل المثال لا الحصر أن الأسير كان يربط من رجليه، و من يديه في أربعة سفن بواسطة الحبال، وعندما كانت تنطلق كل**

**منها في اتجاه كان جسده يتمزق، ويصير أشلاء، و غيرها من أساليب التعذيب.[2]**

**ويخرج القارئ لهذه المصادر بصورة سوداوية حول حياة الأسري المسيحيين بالجزائر صورة كلها معاناة وعذاب، ووحشية، وقسوة، ولكن المثير في الأمر هو أنه يمكننا وانطلاقا من هذه المصادر بقراءة نقدية، وتحليلية و استنتاجية الخروج بصورة مغايرة تماما عن واقع الأسري المسيحيين بمدينة الجزائر واقع أبرز ميزاته التسامح الديني الذي كانوا ينعمون به فيها بالرغم من حالتهم كأسري.**

**وهذا ما نستهدف توضيحه، واستجلاءه من خلال هذا المقال الذي نحاول من خلاله رسم ملامح حياة الأسري المسيحيين في ظل السجون الخاصة بهم بمدينة الجزائر، والمشهورة باسم البانيوات.**

1 – التعريف بالبانيوات-سجون الأسري والعبيد المسيحيين - :

**إن كلمة سجن جاءت من الكلمة الإسبانية بانيو، وتعني الحمام إذ في البداية كان الأسرى العبيد المسيحيين يسجنون في الحمامات خلال فترات الليل، وفيما بعد تزايد عددهم، فأقيمت مباني خاصة لهم، والتي احتفظت بهذا الاسم[3]، وقد كانت شبيهة في حسن تجهيزها بالثكنات المخصصة للأوجاق –فرق الجيش الإنكشاري -.**

**في حين يصفها هايدو في القرن 10 هـ (16 م) بأنها كانت شبيهة بالإسطبلات، وهذا طبعا يعكس مدى عداوته للمسلمين حينها، و في الواقع كان سجن الأسرى من الداخل يشبه كل المنازل في مدينة الجزائر، إذ كان يحوي ساحة داخلية محاطة برواق يرتفع، من فوقه طابق، وهذه المباني كانت مجهزة؛ بحيث قسمت إلى غرف، وبيوت كان بإمكانها استيعاب، أو احتواء من 15 إلى 20 شخص، ولم تكن تتحوي على أثاث باستثناء حصائر**

**منسوجة من القصب، أو الحلفاء، وفي بعض الأحيان كان الأسري العبيد ينامون على أسرة شبيهة بأسرة التخيم والتي كانوا يصنعونها بأنفسهم، والأواني الوحيدة المتواجدة بها كانت عبارة عن بعض الأواني من الفخار المخصصة لاحتواء الماء، أو للطهي.[4]**

**وهذا ما ذهب إليه علج علي في القرن 10هـ (16م) حين ذكر أن سجن البانيو لم يكن سجنا تقليديا بزنازين**

**يسجن فيها السجناء الأيام بطولها، ولكنه كان عبارة عن مجموعة ثكنات بمباني، وساحات ملحق بها فضاء سجن مفتوح أين كان يأتي معظم العبيد للأكل، والنوم عندما لم يكونوا مشغولين في أشغال، وأعمال في المدينة كل هذه المميزات تجعل من بانيو الجزائر أحد السجون الأكثر انفتاحا في العالم، [5] والدليل على ذلك العديد من السجناء الذين فروا منه.**

2- أهم البانيوات في مدينة الجزائر، ومميزاتها :

**وقد قدرها هايدو في أواخر القرن 10هـ (16م) بثلاثة[6]في حين قدرها في القرن11هـ (17م) جواؤ مسكغناس (Mascarenhas )بأربعة سجون[7]، وذكر الأب دان دائما في القرن 11 هـ (17م) 5سجون رئيسية وهامة هي: سجن الملك« domas regis » الذي كان الأكبر، والأوسع وسجن علي مامي الذي كان يقع بالقرب من باب الواد، و سجن الكراغلة، و سجن سيدي حسن، و سجن سانت كترينا -.[8]**

**وفيما يلي ذكر لأهم هذه السجون، أو البانيوات:**

- السجن الكبير- سجن الملك-:

**كان يقع في شارع السوق الكبير(التجاري)[9]على بعد 400 خطوة انطلاقا من باب عزون للذهاب إلى الشرق، وكان مربعا، وطويلا يقدر بـ**

**70قدما وعريضا ب40قدم، وكان يقال له أيضا بانيوا الملك (بانيوا دل راي banno del Rey ).**

**و الذي بني بذوق من طرف خير الدين، وكان ينقسم إلى أرضية، وطبقة عليا مقسمة بدورها إلى العديد من الغرف الصغيرة كانت تحوي كل منها من 10 إلى 15 أسير؛ فقد كان يمكن لهذا البانيوا أن يستوعب لوحده عادة 500 عبد أسير، وأحيانا كان يصل عددهم إلى 2000 عبد أسير، وفي وسط ساحة هذا السجن كان يوجد خزان للمياه كما كانت تسيل عين ذو ماء صافي، وطيب.[10]**

**وبالإضافة إلى السجن الكبير، أو سجن الملك كان يوجد بانيو آخر معروف بـ:**

- سجن البسطارد، « **bastard** » أو سجن الديوانة:

**وقد تم بناءه من طرف الحسن بن خير الدين بعد انتصاره على الكونت دلكودات بالقرب من مستغانم سنة 1558 [11]-وذلك في معركة مزغران .-**

**ولم يكن كبيرا مثل الأول لكنه لم يكن أقل منه من حيث الفن المعماري، وكان بدوره ينقسم إلى الكثير من الغرف؛ حيث كان يوضع فيه على وجه الخصوص الأسرى الذين يعرفون " بعبيد المخزن"[12] لأنهم كانوا ملكا للمدينة؛ أي لكل المجتمع؛ حيث كانوا يستعملون من طرف الآغا، والإنكشارية للقيام بأعمال تهدف للخدمة العمومية، وتحقيق المنفعة العامة، وليستخدموا في الأشغال العامة.[13]بعد أن كانوا في البداية يوظفون في التجديف.[14]**

**وقد ذكر علج علي أن الورشة العمومية الأكبر التي كان يعمل فيها هؤلاء العبيد- عندما قدم لمدينة الجزائر أول مرة كأسير، وهو لا يزال صبيا**

حين وضع في البانيو- في عهد خير الدين بربروس كانت تلك التي أطلقها خير الدين بربروس بعد الاستيلاء على حصن البينون، وتحطيمه، والمتمثلة في بناء رصيف كبير ضخم كان يربط، ويصل موقع البنيون القديم بالمدينة، والذي أستعمل في بنائه بقايا، وركام الحصن المهدم، وحسن هذا الرصيف بشكل محسوس، ومعتبر الحماية التي كان يوفرها الميناء للسفن.[15]

وكان يطبق على هؤلاء العبيد المستعملين في الأشغال العمومية نظام النوبة؛ حيث كانوا يستبدلون كل يومين بآخرين، وكان هذا الإجراء كما يبدو يهدف للمحافظة على حيويتهم، وصحتهم من خلال توفير قسط من الراحة لهم.ومن عبيد المخزن من كانوا يتقنون بعض المهن؛ فيحصلون على رخصة ممارستها مقابل دفع ضريبة معينة للحارس باشي. – [16]

فكانوا يعملون في ورشات يصنعون فيها الثياب، و الأحذية، والبراميل حسب اختصاصهم، وقد ذكر هايدو في القرن 10هـ(16م) ذلك حين قال: أن المهن المتنوعة في مدينة الجزائر كالخياطين، والحذاءين، والسراجين(صانعي السروج ) والبناءين، وغيرها كانت ممارسة كذلك من طرف أسري مسيحيين منتمين لمعلم الورشة –أي كانوا يعملون تحت إمرة الحرفي صاحب الورشة - أو كانوا يكترون ورشات لممارسة حرفتهم مقابل أجرة كانت تدفع لأصحابها تبعا لاتفاق، و شروط متبادلة بين الطرفيين .[17] وقد أشار كاتب أوروبي يدعى جوزيف مورقان إلى أن حسن باشا بن خير الدين قد ترك سنة 1567 عند مغادرته للجزائر عددا من المسيحيين العبيد من بينهم عدد كبير من الفنانين في مختلف الأنواع المفيدة من الحرف، والفنون.[18]

إضافة إلى العمل في ورشات بناء السفن؛ فقد ذكر هايدو في القرن 10هـ (16م) أنه كان يستخدم لبناء السفن في مدينة الجزائر بعض العمال المسيحيين من عبيد "المخزن " -الدولة –كما كان يسميهم الأتراك العثمانيين [19]

**ونشير هنا إلى أن الأسرى الذين كان يمكن مبادلتهم بفدية كبيرة كانوا يتمتعون بالراحة، والأمن إلى غاية عملية فدائهم، فلم يكونوا يقومون بالأعمال الشاقة، والصعبة، وكانت هذه حالة عبيد الباشا؛ أي حاكم الجزائر-إذ عند وصول الأسرى المسيحيين إلى مدينة الجزائر كان الباشا يختار منهم من يريد؛ فقد كانت حصته تقدر بالخمس من الغنائم -حسب سرفانتيس (Cervantes)الذين كانوا لا يذهبون للعمل كبقية العبيد إلا عندما تتأخر فديتهم.[20]**

**وكان الباشا يستجيب دوما لما يحتاج إليه عبيد "المخزن " كل يوم، وهؤلاء الأسرى الذين كانوا يسكنون بانيو البسطارد كانوا يتمتعون بحرية كبيرة إذ كانوا يستطيعون الذهاب، والرجوع كما يحلو لهم، طالما لم يكلفهم الأغا أو الإنكشاريين بأي عمل، وقد كان هذا السجن لا يحوي إلا من 40 إلى 500 شخص، وليس أكثر.[21]**

**وكذلك نجد** بانيو، أو سجن الرايس علي بتشين **الذي كان يحوي حتي550أسير، ولاسيما بعد توسعته المعتبرة، وقد كان يوجد إلى جانب السجون، أو البانيوات السابق ذكرها سجون أخري مثل:** سجن فرحات باي و سجن الكراغلة، **وكل منهما كان يحوي في الحالات العادية 120 أسير مسيحي مع حراسهم الذين كانوا عادة من الأعلاج.**

**ولابد من الإشارة إلى أن بعض هذه السجون، كانت تحوي بعض الأسربالعبيد المسيحيين الذين تعود ملكيتهم إلى الخواص [22]، والذين لم يكونوا يملكون أمكنة تكفي لإسكانهم عندهم، أو عندما كانوا يريدون معاقبتهم لعدم طاعتهم، وكان يمكن القيام بذلك مقابل مبلغ صغير من المال.[23]**

**كما أن كثير من الخواص كانوا يقودون أسراهم إلى هذه السجون خاصة عندما كان سيتم تحريرهم بدفع الفدية المحددة لهم، لأن هذه السجون كان يمكن أن تستوعبهم، و توفر لهم الراحة، والأمان إلى أن يأتي موعد فدائهم.[24]**

**3 -حياة الأسري والعبيد المسيحيين في ظل البانيوات، ومظاهر التسامح الديني فيها:**

**أ_ حرية التنقل والعمل والترفيه:**

و قد كانت هذه السجون "البانيوات " بمثابة مسكن فعلي للأسرى؛ فقد كانوا ينظمون جلسات في الساحة الواسعة للبانيوا؛ حيث كان يجري إعداد الطعام كالدجاج، والأرانب على نار هادئة، وكان بعض الأسرى يقضون أوقات الفراغ في لعب الورق، والمناقشات؛ فقد كانت القصص، والحكايات الطويلة مصدرا للترفيه، والمسامرات إذ كانت قصصا ملفقة حول العالم الموجود خارج مدينة الجزائر؛ فقد كان أكثر الأسرى بحارة، وبالتالي كانوا ينسجون القصص عن الأماكن، والعادات الغربية التي شهدوها على شواطئ الهند، وأسيا عموما، و في العالم الإفريقي الأوروبي، ومستعملين لغة الفرنكا[25]للتخاطب فيما بينهم.

والتي اعتبارها درندا(Emmanuel d'Aranda ) في القرن11هـ (17م) بمثابة لغة للتخاطب، وللتفاهم، والتواصل ما بين الأتراك العثمانيين والعبيد المسيحيين، وفيما بين العبيد أنفسهم من مختلف الأمم أي الجنسيات، مضيفا بأنه لولا وجودها لكان من المستحيل للأسياد التحكم في العبيد؛ أي التواصل معهم لإصدار الأوامر، وتحديد مهامهم..الخ -وضرب مثلا بالعبيد في بانيو علي بتشين؛ حيث ذكر أنه كان يتواجد به حوالي 550 عبد كانوا يتكلمون اثنين

وعشرين لغة مختلفة.[26] و لغة الفرنكا هي التي كانت تستعمل في قص تلك القصص ليفهمها جميع الأسرى العبيد.

**و قد وصف دراندا الأجواء في بانيو علي بتشين خلال القرن 11م (17م)، وجلسات الأسري؛ حيث قال:** " كنت أجد متعة كبيرة في الاستماع إلى مكان يحدث في أوساط عبيد البانيو لدرجة أنه عندما كنت أقيم عند سيدي محمد شلبي وغا كنت أذهب للبانيو-**بانيو علي بتشين**- للتسلي، و للترويح عن نفسي بالتحدث مع فرنسوا الطالب، والذي كان يوجد دائما من حوله عبيد من دنكرك (Dunkerque)-**وهي مدينة شمال فرنسا شهيرة بميناءها المطل على بحر الشمال** - كانوا يقصون مغامراتهم، والمواجهات البحرية التي كانت تحدث لهم في البحر.[27]

أما الهولنديين؛ فكانوا يحكون عن ما كان يحدث في الهند الشرقية، وفي اليابان، والصين في حين أن الدنماركين، والقادمين من هامبورغ ( Hambourg )- **وهي إحدى المدن الألمانية ويعتبر ميناءها المطل على بحر الشمال من أحد أهم، وأكبر الموانئ الأوروبية** -كانوا يتحدثون عن صيد الحيتان في غرينلند، وفي أي وقت من السنة كانت الشمس تسطع في إسلندا، ومتى كانت ليالهم ذات الستة أشهر تنتهي، و إذ كانت مناقشات و حوارات كهذه لا تعجبني كنت أذهب عند الإسبان الذين كانوا يحكون عن ممالك ملكهم، وطريقتهم في حكمها فيروون عن ملذات مكسيكو، أو ثروات البيرو، وإذ ما ذهبت عند الفرنسيين؛ فقد كنت أستمع للحديث عن الأرض الجديدة، وكندا، وفرجينيا إذ أن تقريبا كل العبيد كانوا أناس بحر –**بحارة** –". [28]

**كما كان يوجد بداخل هذه البانيوات محلات لبيع الخمر؛ أي خمارات يديرها الأرقاء؛ حيث كانت الخمر المأخوذة من السفن المسيحية تخصص لهم.[29] لكونها محرمة على المسلمين تبعا للشريعة الإسلامية.**

وذكر دراندا في القرن 11 هـ (17م) أن الأسري العبيد الإسبان الذين كان في إمكانهم تسير، أو إدارة مخمرة كانوا يعيشون كأمراء مابين العبيد، وكانوا يكسبون في وقت قصير ثمن فدائهم؛ حيث أن الذين كانوا يملكون بيب(pipe )-مقياس قديم للسوائل -من الخمر في شهر سبتمبر، والذي كانوا يشترونه بـ 16 باتقون (Patagon )-عملة فضية قديمة- كانوا عند بيعه بالتجزئة يحققون أربعين، أو خمسين باتقون.[30]

وأشار دراندا إلى المدعو ألفاراز الميروقي الذي أصبح مسيرا لثلاثة حانات، ولم يرد العودة لبلاده مع أنه دفع مبلغ فداءه، ومن جراء هذه التجارة صار جد غني؛ مما سمح له بأن يقوم بالكثير من الخير لأبناء بلده لدرجة أنه دفع للبعض منهم الثمن الضروري لفدائهم؛ فقد كان في مقدور هؤلاء الأسري في أغلب الأحيان تحصيل ثمن فداءهم في غضون السنة نظرا للأرباح المعتبرة التي كانوا يحققونها من هذا العمل.[31]

وإلى جانب الخمر كان يباع في هذه الحانات عادة الخبز، واللحوم من كل الأنواع، وأطعمة أخري سهلة التحضير- كالكسكس -.[32]

وكانت هذه الأخيرة بمثابة ملتقى عام كان يسرع إليه كل عبيد المدينة عندما كانت لديهم ساعة، أو اثنتين من الراحة، والفراغ؛ حيث كان يتم فيها تبادل الأخبار عن مدينة الجزائر، والأخبار عن الأمم المسيحية التي أحضرها آخر القادمين إلى مدينة الجزائر من الأسري العبيد كما كان يخطط فيها للمشاريع المستقبلية كمشاريع الفرار.[33]

وقد كان يشرف على هذه السجون حراس-حارس باشي - كان دورهم يتمثل أساسا في الحفاظ على نوع من النظام داخل السجن، ومراقبة توزيع المؤن؛ أو الطعام إضافة إلى التأكد من خروج الأسرى العبيد المخصصين للعمل، والحرص أيضا على أن تنظف الممرات، والغرف بعناية، وأن تبيض

**بالجير(الكلس) مرة في الأسبوع، إضافة إلى مراقبته وتفقده، وتأكده من أن كل الأسرى قد عادوا قبل حضر التجوال، وإطفاء الأنوار.[34]**

**وهنا نشير إلى أن العثمانيين كانوا رحماء، ومحسنين، ولم يكن من النادر أن ترى منهم من يأتي إلى البانيو متبوعا بخادم محمل ببعض المؤن، والصدقات الموجهة للأسري العبيد. [35]**

**و قد كان بعض الأسرى يمارسون تجارة تعتمد أساسا على المسروقات؛ أي بمثابة سوق للصوص في هذه السجون، إذ فور إغلاق الحارس للأبواب عند حلول الظلام كانت تتم عملية شراء، ومقايضة الأشياء المسروقة خلال اليوم من طرف الأسرى العبيد، وهذا ما أشار إليه دراند حين قال:**

"... بمجرد أن أغلق الباب رأيت ثعلبا-يعني بهذه العبارة صاحب دهاء، ومكر مثل الثعلب -عجوزا، وهو عبد إيطالي الأصل- يحمل كيسا كبير من الملابس من الكتان، والصوف والقمصان، ..... ، و إناء من نحاس وأدوات أخري مشابهة ، وبدء ينادي قائلا : بكم؟ فسألت عبدا: ماذا يعني هذا؟ فأجابني بما أن سيدنا لا يعطي الطعام لعبيده؛ فإن القسم الأكبر منهم يعيشون مما يسرقون، وفي كل ليلة تباع غنيمة ذلك اليوم[36]-من المسروقات -.

**و يبرر بعض من كتبوا عن الموضوع هذا الأمر بأن الضرورة هي التي فرضت عليهم ذلك؛ أي الحاجة، والجوع**

**أو بتحريض من أسيادهم من المسلمين، وما ذكرناه سابقا ينفي ذلك، ومن ثم فهذه الأعمال كانت مرتبطة بسلوكيات شخصية.**

**و لابد من الإشارة إلى أن هؤلاء العبيد الأسرى كانوا يتمتعون بحرية نسبية في الحركة لا يحدها سوى قضاء**

الليل في هذه الدور الخاصة[37]؛ أي سجون الأسرى العبيد« Bagnes »التي كانت البعض منها تابعة للسلطة والأخرى كانت خاصة مملوكة للأفراد الأغنياء كرياس البحر مثل "بانيو علي بتشين -كما سبق ذكره - .

**فقد كانوا خلال النهار يذهبون، ويرجعون بحرية في المدينة، وضواحيها؛ إذ كانوا لا يعملون يوم الجمعة و يمنحون ثلاثة ساعات للراحة خلال الأيام الأخرى كان يمكنهم خلالها أن يجمعوا لأنفسهم بعض المال إما لشراء أطعمة إضافية، أو للترويح عن النفس[38] سواء عن طريق العمل، أو التسول، وطلب الصدقات، أو ببساطة بالسرقة، وكانت تلك الحالة الأكثر شيوعا[39]. وكان بمقدورهم ارتياد الحمامات، كما أن البعض منهم مارسوا التجارة، وحققوا من وراءها بعض الثروات.[40] -كما سبق الإشارة إليه-.**

**بل وإن ساعات الفراغ، والراحة التي كان يتمتع بها الأسير العبد المسيحي قد سمحت لأصحاب الملكات الفنية، والأدبية بتنميتها، ومن هؤلاء سرفانتيس الذي كان يتسلى في خلوته، ووحدته بنظم الشعر، أو كتابة القصة ويظن أنه كتب بعض مسرحياته القصيرة خلال إقامته في الجزائر، وعلى وجه الخصوص مسرحيته الشهيرة بالمعركة البحرية la batalla naval ""، وكذا مسرحيته معاملة الجزائر" El trato de argel "، و التركية العظيمة "LA GRAN TURQUESA" ومسرحيته السلطانة العظيمة" LA GRAN SULTANA".[41]**

**التي تجري مجرياتها في القسطنطينية؛ أي اسطنبول، وكذا الإسباني الشجاع " l'espagnol courageux" التي استلهمها من الحصار الرهيب للمرسي الكبير من طرف حاكم الجزائر حسن باشا بن خير الدين سنة 1563 إلى جانب أقصوصته بانيوات الجزائر، وخبر الأسير، وكذا الإسباني الإنجليزي" l'Espagnol anglaise ".[42]**

وربما أن قمة الأدب الأسباني واحدي جواهر الأدب العالمي الذي ألفها، وأبدعها سرفانتيس شهدت مولد فكرتها في مدينة الجزائر، ونقصد هنا رواية دون كيشوت الشهيرة- وهذا ما نلمسه من خلال الفصل39، و40 و41 منها، والتي تتناول مغامرات أسير إسباني، و تقدم في نفس الوقت لوحة حية عن حياة الأسري المسيحيين في مدينة الجزائر-.

وبمناسبة الحديث عن سرفانتيس؛ فإنه على غرار بقية الأسري المسيحيين حاول أن يستفيد من مدة أسره في العمل مستغلا مواهبه، وبما أن ذلك كان أمرا ممكنا في مدينة الجزائر للأسري؛ فقد استطاع أن يعطي بعض الدروس في اللغات، والرياضيات، وبعض العلوم الأخرى لعدد كبير من الأندلسيين، وقد مكنه ذلك من كسب المال، ورفع مستوي معيشته، ومن ثم مساعدة، ومعاونة رفاقه في الأسر.[43]

وهنا نشير إلى أن العديد من الأسري المسيحيين الذين أقاموا بمدينة الجزائر، وسجونها كانوا أدباء، ورجال فكر وقلم؛ فعلى غرار سرفانتيس نجد على سبيل المثال لا الحصر" بطرس جيلس"، والذي كان من رجال الأدب، وأستاذا متمكنا في اللغتين اللاتينية، والإغريقية وفي الفلسفة أيضا ألقي عليه القبض من طرف البحارة الجزائريين، وهو عائد من رحلته سنة 1546 من اليونان، وأسيا، رحلة كلف بها من طرف الملك الفرنسي فرنسوا الأول لجمع المخطوطات، والكتب؛ فقد كان بطرس هو المشرف على مكتبة الملك، وقد أقام هذا الأخير مدة طويلة بالجزائر إذ تأخر افتداؤه بسبب مبلغ الفدية الكبير.[44]

**كما وجد في بانيوا علي بتشين في القرن 11هـ(17م)حسب دراندا 6 جراحين من الأسري الذين كانوا يكسبون الكثير من المال من خلال ذهابهم لمعالجة البرجوازيين؛ أي الأغنياء من سكان مدينة الجزائر.[45]**

وكان من بين الأسري المسيحيين في البانيوات أصحاب عاهات جسدية، وقد أورد دراندا لنا مثالا عن ذلك في القرن 11هـ (17م)؛ فقد ذكر أنه تعرف في بانيوا علي بتشين على فتي من هابورغ( Hambourg ) فقد ذراعا أثناء المواجهة البحرية التي سبقت أسره، فأعطاه أحد أبناء بلده نصف باتكون(Patagon )- عملة نقدية فضية قديمة- وبهذا المبلغ اشتري لعبة كانت مكونة من قطع خشب أسطوانية الشكل، وكرة حيث كانت هذه اللعبة تنص على محاولة إسقاط هذه القطع بواسطة الكرة من مسافة معينة –وهي لعبة شبيهة إلى حد كبير بما يعرف اليوم بلعبة البولينق (*quilles de bowling*)-و ترومدام الذي كان عبارة عن لعبة متمثلة في محاولة إدخال كريات صغيرة في أقواس مرقمة. وكان يذهب بهما لخارج المدينة بالقرب من الباب؛ فيكري، أو يأجر هاتين اللعبتين للأطفال الذين كانوا يلعبون هناك، فيكسب حياته بشكل جيد من جراء هذه التجارة.[46] و نستخلص من هذا أن العبيد الأسري المسيحيين أصحاب العاهات كانوا يجدون أيضا في مدينة الجزائر ما يقومون به لكسب المال.

ب _ حرية العبادة، وممارسة الطقوس الدينية:

**و لابد أن نشير إلى أنه كان يوجد بهذه السجون (البانيوات ) كنائس كانت تسمح للأسري المسيحيين بأداء طقوسهم الدينية بكل حرية؛ ففوق ربوة، أو مرتفع داخل سجن الملك« domas regis »أو السجن الكبير كانت توجد كنيسة أين كان يصلي المسيحيون، والتي كان يقام فيها القداس طوال السنة، وخاصة الاحتفالات الدينية كعيد المسيح، وفيها كانت تنشد الأدعية الدينية في انسجام.[47]**

**وحسب ما ذكره هايدو في أواخر القرن 10 هـ(16م )؛ فقد كانت هذه الكنيسة مقصدا لعدد كبير من الأسرى المسيحيين الأوفياء على حد قوله الذين كانوا يحضرون قداس أيام الأحد، والاحتفالات الدينية، وأيام العطل.[48]**

**ففي أيام الآحاد كان يوجد عدد كبير من الحاضرين لدرجة أن لا يتسع لهم المكان؛ فكان الراهب يضطر إلى قول القداس في الخارج؛ أي في ساحة البابنوا.[49]**

**وقد كان يتولى الإشراف على هذه الكنيسة رجال دين كانوا هم أنفسهم أسرى ببانيوا الملك، وقد ذكر هايدو في القرن 10 هـ (16م) أن عددهم كان يقدر 40 رجل دين من كل الأمم، وكان منهم رجال مثقفين متعلمين، ومعلمين، وأطباء. [50]و من ثم فإن القيام بالواجبات الدينية المختلفة بالنسبة للأسرى المسيحيين كان أمرا ممكنا بالنظر إلى العدد الكبير من الرهبان الذين كانوا يشرفون على هذه الكنائس.**

**علما أن هؤلاء الرهبان كانوا ينالون الاحترام من طرف العثمانيين، و مرد ذلك عملهم الخيري من جهة وكذلك تأثيرهم الإيجابي على سلوك، وسيرة الأسرى الأرقاء؛ حيث كانوا يعاملون بالحسنى خلال أدائهم لعملهم.[51]**

**وقد ذكر دراندا في القرن 11هـ (17م) مثالا لأحد رجال الدين هؤلاء، وهو المدعو "الأب أنجال "الذي كان يقيم في بانيو علي بتشين؛ حيث كان يقول القداس يوميا في كنيسة هذا البانيوا. [52]وقد فضل هذا الأخير تقديم مبلغ فداءه الذي جمعه أصدقائه في جنوة-إحدى الجمهوريات الإيطالية - كصدقات على العبيد الأسري.**

**كما تمكن الأب أنجال هذا من كسب ود، واحترام كل الأسري العبيد بمختلف جنسياتهم، ومذاهبهم بما في ذلك الروسيين-أصحاب المذهب الأرثوذوكسي -، وكان لأخلاقه، وسلوكه محترما، ومقدرا حتى من طرف الأتراك العثمانيين أنفسهم، نظرا أيضا لعمل الخير الذي كان يقوم به؛ فقد كان يصلح مابين الأسري العبيد في البانيو عند حدوث خصومات، ومشدات كما كان يهتم بالمرضي من الأسري العبيد؛ فيتدبر لهم بعض اللحوم الطيبة،**

**وكان يوزع الصدقات على المحتاجين منهم؛ إذ لم يكن ينقصه المال أبدا بفضل بعض العبيد الأتقياء –حسب تعبير دراندا – الذين كانوا يزودونه بالصدقات لتوزيعها على الفقراء .[53]وهذا دليل على أن وضعية الأسري العبيد لم تكن سيئة، وبائسة كما تصفها المصادر الغربية.**

**كما كان سجن** البسطارد « bastard »، أو سجن الديوانة **كان يحوي كنيسة كانت تعرف بسانت مريا وكانت تتميز بكونها تشتمل على مذبحين، أو هيكلين واحد مخصص للعذراء، والآخر لسانت لوسيان، ولجماعة إخوان دو غوساغ( Confrérie du Rosaire) إذا كانت هذه الأخيرة ببساطة بارزة، ومثيرة للاهتمام، والإعجاب بزينتها، وكذا بأثاثها المقدس، على حد تعبير قرماي (Grammaye ) في القرن 11 هـ (17 م)، والذي سجل أيضا أنه كان يقصدها الكثير من العبيد الأسري، وكان يشرف عليها قس، أو كاهن يقيم بالبانيوا المذكور مثلما كان الحال في كنيسة التنظيم التثليثي في بانيوا الملك. [54]**

**في حين يذكر جواؤ مسكغناس(Mascarenhas )في القرن11 هـ (17م) أنه في كل يوم كانت تذكر في كنائس البانيوات أكثر من 15صلاة، أو ترتيل بأبواب مفتوحة بفضل الله ورعايته" وكثيرا ما كان يدخل للتفرج بعض العثمانيين، والمور[55] –يقصد بهم بقية سكان مدينة الجزائر المسلمون – وأضاف أنه في أيام الاحتفالات كان يقام قداس ، وعظة دينية مرفقة بموسيقي جيدة .وكان يصرف في كنيستا السجنين السابق ذكرهما في كل عام عشرين خروبة(arrobes) -وهي عملة نقدية من النحاس -من الشمع. [56]**

كما كان يحوي سجن سانت كترينا، أو بانيو السيدة - المذكور آنفا- بدوره كنيسة كانت تعرف باسم البانيوا الذي تقع به، وقد كانت أقل أهمية من الكنيستان السابقتان صغيرة فعلا، ولكن كان لديها مذبح منعزل بشكل كافي.وفي كل من **سجن فرحات باي، و سجن الكراغلة** كانت توجد كنيسة.

**وقد سجل جواؤ مسكغناس(Mascarenhas )في القرن11 ه (17 م) أن كل الكنائس المتواجدة في البانيوات المشار إليها أنفا كانت مجهزة بشكل جيد من حيث الأقمشة الحريرية الجميلة التي كان يعيرها العثمانيين أنفسهم لعبيدهم-وهذا دليل على التسامح الديني الذي كان يتمتع به الأسري العبيد في مدينة الجزائر-إضافة إلى اللوحات والرسومات الغالية-وتعرف بالأيقونات - الثمينة التي كانت ملكا للكنيسة، والزينة التي كانت بها.[57]**

**وقد سجل سرفانتيس في القرن 10ه (16م) كذلك في كتاباته ما يبرز لنا هذا التسامح؛ حيث أورد محادثة جرت في سجن من سجون مدينة الجزائر بين أسيرين مقتطفة من الفصل الثالث من إحدى مؤلفاته حين كان الأسري يستعدون للاحتفال بأحد أعيادهم مع التجهيز لتقديم مسرحية كان سيحضرها سيدهم التركي، فقال أحد الأسيرين :**

**الجزائر كما أري تشبه قوس القزح نجد فيها جميع أنواع العبقريات، والمهن ذات الحسنات الكامنة، فأجابه رفيقه:حتى أنك تستطيع أن تلاحظ ما يدهشك تلك الكلاب الخالية من الإيمان تتركنا كما تري محافظين على ديننا، وتلاوة قدسنا بحرية[58].**

**وهنا إقرار بحرية ممارسة الشعائر الدينية التي كان يتمتع بها الأسري إلى جانب أنها تبرز أنه إن وجد من كان يحتقر حضارة، ودين الآخرين لحد الاستهانة بهم، وشتمهم، فهم المسيحيين من رجال الدين، ولاسيما المكلفين بعمليات الفداء، وحتى بعض الأسري فرغم المعاملة الحسنة التي كانوا يلقونها من قبل أهل مدينة الجزائر إلا أنهم ظلوا محتفظين بحقدهم، وتعصبهم الغير مبرر.**

**كما ذكر دراندا في القرن 11ه (17م) أن سيدته كانت تسمح له حين يطلب منها بالذهاب كل صباح لسماع القداس في سجن علي بتشين –حيث**

**كانت به كنيسة تعرف بكنيسة سانت روش (Saint -Roch-) -بعد قيامه بتمشيط الحصان، وحمل الماء، و الذهاب للسوق، وقيامه بأشياء أخري.** [59]

ج _الحق في العلاج والعناية الصحية:

**و لا يمكن تجاهل المستشفيات، و الصيدليات التي أسست في البانيوات من طرف رجال الدين "القساوسة" الذين كانوا مكلفين بعمليات فداء الأسرى؛ فقد كانوا يساعدون الأسرى، و يعالجونهم، و يدفنونهم عند وفاتهم.**

**وكان أول مستشفى للأسرى العبيد، قد بني سنة 1551 في أحد البانيوات-وقد يكون ذلك وراء بانيوا الكراغلة أو في بانيو الملك- بفضل تعاون السلطات الجزائرية، من طرف الأب سيبستيان دوبور (Sébastien Duport) من الدير الأسباني دوبرقوس الذي شارك في إرسالية لفداء الأسري في مدينة الجزائر في سنة 1546 والذي عمل على تطوير تنظيمه، وخدماته بكل تفاني.** [60]

**و قد وصف خلال القرن 11 ه(17م )مستشفى السجن الكبير، أو سجن الملك من طرف أحد أفراد التنظيم التثليثي المقدس-تنظيم ديني كاثوليكي كان يشرف على فداء الأسري المسيحيين بالجزائر -، وهو بيرنارد دو مونري( Bernard de Monroy)في رسالة بعث بها إلى رئيسه –بمقاطعة قشتالة بإسبانيا- بتاريخ 20جوان 1612مما جاء فيها"**مستشفي النظام التثليثي الذي أسسناه، وقمنا ببنائه في غرفة ملحقة بتلك التي نستعملها ككنيسة، وبعد أن قمنا بتحضيره، وتجهيزه بشكل أولي برخصة، وتصريح من الباشا، و البلكباشي نحتكم هنا على ثمانية أسرة مثبتة في الجدران على ارتفاع قدم ونصف أربعة من كل جانب، والجدران مغطاة بالحصير، أما المطارح، و الأفرشة فمن القماش، ومحشوة بأوراق الأشجار، والأغطية، والإزار من نفس الأقمشة وبقية

الزينة مشكلة من الملابس والخرق التي يحضرها المريض، والتي تتمثل في قمصان، وبعض السراويل.[61]

ووضعنا وسط المستشفي مذبحا مع صور-أيقونات -وصليب من النظام الأحمر، والأزرق؛ فإذ جاء المريض إليها يتم معالجة روحه بجعله يعترف بخطاياه، وطلب الغفران، ثم بالعمل على معالجة جسده متوفرين من أجل ذلك على جراح بمثابة طبيب تم فداءه.....و لديه لهذا الغرض كل المحاليل، والأدوات الضرورية للمعالجة، وللعناية بالمرضي، ولتمريضهم لدينا مسيحي آخر تم فداءه أصله من مدريد ابن سيدة كاترين ذو ميراندا-**أحد التنظيمات الدينية بإسبانيا** - وهما يخدمان المرضي المساكين بكثير من النشاط، والرحمة ".[62]

**ونستخلص من ما سبق أن المستشفى المذكور كان يحتوي على أسرة مصطفة على جانبي الغرفة ذات أغطية نظيفة إلى جانب هيكل ديني صغير عند الحائط، وسط صفي الأسرة، وكان طاقمه الطبي مشكلا من طبيب وممرض مساعد، و نضيف أنه عادة ما كان يخدم في المستشفى مسيحيين كان يعتنون بالمرضى، ويدفنون الموتى ليس فقط من يموتون في السجن، أو المستشفى، ولكن الأسرى الذين كانوا يموتون عند أسيادهم[63]، وكانت مصاريفه تدفع، وتسدد عادة عن طريق صدقات الأسرى أنفسهم ، و هذا دليل على أن هؤلاء لم يكونوا بؤساء بالقدر الذي تذكره المصادر الغربية .**

**كما أن بيرنارد دو مونري أشار إلى مسألة أخري هامة من خلال الرسالة المشار إليها أنفا تتمثل في أن الكثير من المرضي كانت تتم زيارتهم من طرف رجال الدين "القساوسة"، وحتى من طرف بعض المور–والمقصود بهم سكان مدينة الجزائر المسلمون–، والأتراك، وأن البعض منهم بالرغم من كونهم برابرة–على حد قوله-كانوا يعطون القليل من الصدقات، ويتعجبون بأنه لا توجد مؤسسة كهذه، أو أي شيء شبيه بها في مدينة الجزائر لمرضاهم.**

وما سبق دليل على تعاطف سكان مدينة الجزائر مع هؤلاء الأسرىالعبيد المسيحيين المرضي، والتسامح الكبير الذي كانوا يحظون به فضلا على تنبههم لأهمية المستشفي كمكان لتلقي العلاج.

كما حرص قرماي سنة **1619** على أخد إجراءات هادفة لتطوير، وتدعيم هذا المستشفي؛ حيث فكر في منحه تنظيما يكفل له الاستمرارية؛ فتحصل من السلطات الجزائرية على الحق، والمساعدة في إعادة ترميمه، وأن يلحق به كما بمستشفي عنابة هبة ثابتة مقدرة بـ**20**ريو-عملة نقدية - من الذهب محصلة من هبة أوصى بها التثليثي بيار بينو نائب قنصل سابق لفرنسا في مدينة الجزائر من**1585-1587**. [64]

إلى جانب هذا المورد كان يجب إضافة حصيلة، أو نتاج جمع التبرعات المقامة بصفة منتظمة كل أيام الثلاثاء من عند التجار المسيحيون المقيمون في مدينة الجزائر؛ حيث حرص الإسبتالي قرماي(**Grammaye**) على إرجاع هذه العادة القديمة، واستمرارها بانتظام أكبر، والتي كانت مستحبة حتى من طرف العثمانيين، وقد حرص على إيجاد جهاز إداري لهذا المستشفي لضمان السير الحسن لها؛ إذ كان يري ضرورة تأسيس مجلس يكون على رأس هذه المستشفي يتكون من أعضاء دائمين، و كذا قنصل فرنسا الذي كان سيكون له كمهام التسيير الإداري، والمالي للمستشفي، وتعيين جراح، وطبيب[65]...الخ.

ومن خلال تزويد المستشفي بدخل ثابت، وبتنظيم، وإدارة لتسيره كان قرماي يطمح لإيجاد مستشفي ليس مؤقت، ولكن مستشفي مبني على أساس صلب في بانيو الباشا(الملك) نفسه، ولكن مستقل عن كنيسة التنظيم التثليثي.[66] ومما سبق نستخلص مسألة هامة ألا وهي الحرية التي كانت تمنح لرجال الدين المسيحيين من طرف السلطات في مدينة الجزائر لتحسين، وضعية الأسري العبيد، ولاسيما في الميدان الصحي.

كما أنه في سنة **1662**م قام رجل الدين المدعو الأخ بيدروا دو كنسيسيون –بيدرو كريدو –وبمجرد وصوله لمدينة الجزائر بترميم مستشفي بانيو سانت كترينا (أو كتالينا)ثم قام على التوالي بترميم المستشفيات الأخرى - المستشفيين في بانيو الملك، و مستشفي كل من بانيوا البسطارد، وبانيوا شلبي، أوعلي بتشين -مزودا كلا منها بقس يقوم بالقداس للمرضي، وطبيب، وجراح لمعالجتهم فضلا عن ممرضين، وطباخين تاركا للتنظيم التثليثي، وخاصة من مقاطعة قشتالة ، ولمسير دير هذا التنظيم في مدريد إدارة ، وتسير المداخيل التي خصصها لها حتى تستمر بعد وفاته العناية ، والمحافظة على هذه المستشفيات العزيزة عليه الشيء الذي فعله خلال حياته.[67]

ولابد أن نشير إلى أن حكام الجزائر قد اهتموا بتحسين الخدمات الصحية المقدمة للأسري العبيد المسيحيين في هذه المستشفيات من خلال إصدار قوانين ومراسيم كانت تحوي بنودا من شأنها تحقيق هذا الهدف، وهذا ما يتجلى لنا بوضوح تام من خلال مرسوم الداي شعبان(**1689-1695**م) المؤرخ في **1694** الخاص بأقدم المستشفيات التي أقيمت في مدينة الجزائر للأسري العبيد المسيحيين، وقد كان بمثابة اتفاق بين الداي ممثل الدولة الجزائرية والأب المسير، والمدير حينها لمستشفيات التنظيم التثليثي، وهو الأب جوزيف كيرالت **(Joseph Queralt)** من مقاطعة قشتالة؛ حيث منح الداي ممثل السلطة الجزائرية بموجبه جملة من الإمتيازات للقائمين على تسير، وإدارة تلك المستشفيات، وفي مقدمتها مستشفي بانيو الملك[68]. حيث تم من خلاله التأكيد على كل الإمتيازات الممنوحة من طرف الأجداد، والتي بسبب بعض الحوادث يمكن أن تكون قد وقعت في طي النسيان، وبعيدا عن الذاكرة.

**كما عمل البند الثاني على توفير دخل دائم لصالح المستشفي؛ حيث نص على أمر صادر عن الداي يقضي بأن كل سفينة من أي جنسية كانت تأتي إلى ميناء مدينة الجزائر حاملة شحنة تكون مجبرة على أن تدفع للأب المسير أو المدير، وللمستشفي أربعة بتاك(pataques )عملة البلاد إسبرة(d'aspre)[69] وكل بحار من هذه السفن عليه أن يعطي2 ريال، وكل مسيحي يذهب حرا عليه أن يعطي 2 ريو(réaux)من إسبرة، و كل أسير مسيحي سيذهب حرا، ومعه مال، أو صدقة عليه أن يعطي 2 ريو(réaux) من الفضة، وإذا اعترض أي كان، أو تجاوز هذا الأمر، والإجراء الصادر عن الداي سيكون معاقبا بشدة، وصرامة.[70]**

**ونتلمس دائما من خلال هذا المرسوم تسامحا كبيرا من طرف السلطات الجزائرية مع المشرفين على المستشفيات، والقائمين على شؤونها لصالح الأسري، والعبيد المسيحيين، فمثلا نص البند السادس من هذا المرسوم على منح الأب المذكور المدير، والمسير للمستشفي، و لخلفائه الحق في أن يدخلوا إلى المدينة المال من أي نوع كان وكل الأشياء المتنوعة الأخرى كالملابس والأدوية، و كل أنواع المؤن الضرورية لإنقاذ، أو نجدة المستشفي، والمحافظة عليها، وذلك بكل حرية؛ حيث يتم إدخال كل هذه المواد بمختلف أنواعها إلى مدينة الجزائر دون أن تدفع من أجل ذلك أي ضريبة لقصر الملك " قصر الجنينة "، ولا عند مدخل الأبواب، ولا في أي مكان آخر- إذ تكون معفية تماما من ذلك-.[71]**

**كما نتلمس دائما من خلال بنود هذا المرسوم مسألة هامة ألا، وهي الاحترام الذي كان يحظى به رجال الدين المسيحيون، والحرية، والثقة الممنوحة لهم من طرف السلطات الجزائرية، والتي تصب في إطار المعاملة التي يقرها الإسلام لأهل الذمة، وإن كانت في صراع، ونزاع، وحرب مع الدول التي**

**ينتمي إليها هؤلاء؛ فقد نص البند السابع على السماح للأب المسير حينها، ولخلفائه، وكل رجال الدين، والأشخاص الآخرين الأحرار من المستشفي بالخروج، والذهاب إلى إسبانيا، والعودة إلى مدينة الجزائر بحرية دون أي عواقب، أو موانع مهما كانت.[72] و نعلم أن أسبانيا كانت العدو التاريخي اللذوذ لدولة الجزائر، وكانت لا تزال محتلة حينها لوهران، والمرسى الكبير-.**

**كما أننا نلاحظ من خلال هذا المرسوم مساهمة سلطة البلاد في توفير من يقوم بخدمة المرضي في المستشفيات دون أن يكلف ذلك شيئا للقائمين على شؤون المستشفي؛ حيث جاء البند الثامن على شكل أمر يقضي بأن تعطي كل البانيوات- السجون- التي توجد في المدينة؛ أي سجون البايلك كما تلك الموجودة في الغيلوطات-نوع من السفن - مسيحي لخدمة المستشفي دون أن يكون على الأب المسير للمستشفي أن يدفع عن المسيحيين المذكورين الذين سيخدمون في المستشفي أي قمر؛ أي أجرة شهرية، ودون أن تترتب عليه من جراء ذلك أي مسؤولية.[73]**

**كما أن الحكومة أمرت كذلك كل الأسياد بإرسال إسبرة –عملة نقدية -مع كل عبد مريض فإذ مات العبد فإنها كانت تستعمل في تغطية تكاليف الدفن، ولكن في حالة تعافيه من مرضه كانت تعاد إلى سيده.[74] وإلى جانب المستشفيات الموجودة في البانيوات كانت توجد صيدلية مركزية جيدة في قصر الجنينة تعمل على توفير الأدوية للمستشفيات، والتي أنشأها بيدرو ذولكنسبسيون -المشار له آنفا –.كما أن العبيد المرضي الذين كانوا يعالجون أنفسهم خارج هذه المنشآت كانوا يلجئون لهذه الصيدلية للحصول على الأدوية.[75]**

**وإضافة إلى المستشفيات المتواجدة في البانيوات كان يوجد خارجها مستشفي معروف بمستشفى إسبانيا، وكان مقصدا للأسرى الأسبان خاصة**

**الذين كانوا دوما أكثر عددا، و تم إنشاءه سنة 1575 من طرف كبوسيان- رجل دين مسيحي كاثوليكي- كان مؤدب دون خوان ذو تريش- ابن الإمبراطور شرلكان -، والذي أسر من طرف الجزائريين، وقد أرسل دون خوان ذو تريش بمبلغ معتبر من المال لفداء مؤدبه، ولكن هذا الراهب الكريم-على حد تعبير لوجي دوتاسي - فضل الصالح العام على حريته الشخصية، فاشتري مبني كبيرا مع مقبرة للمسيحيين خارج باب الواد، وجعل من هذا المبني المستشفي المذكور، وترك مبلغا كبيرا من المال للعناية به والمحافظة عليه، وقد أوصي بأن يكون تحت إدارة رجال دين الفداء الإسبان، وأن يقبل فيه كل المسيحيين المرضي دون استثناء، وقد كان أباء الفداء الإسبان في مستوي ثقة مؤسس المستشفي بهم من خلال سيرتهم الجيدة والإضافات التي قاموا بها في مستشفاهم.[76]**

**في حين أنه في المقابل لم يتحصل الأسري المسلمين بالبلاد الأوروبية على نفس الحقوق، ولا نتحدث هنا عن الخدمات الصحية؛ فهذا كان مفتقدا بالنسبة لهم بل عن مسألة حقهم بأن يحضوا على الأقل بقبر عند وفاتهم؛ ففي مرسيليا مثلا منحت لهم مقبرة، ولكن قصتها كانت مضطربة لدرجة أنها كانت الأصل في نشوب خلاف بين البلدين إذ لم يتم إيجاد هذه المقبرة إلا سنة 1691 م بفضل رسالة بعث بها الداي شعبان للملك لويس الرابع عشر ذكره فيها ببعض الحقائق مما جاء فيها:**

".... يوجد في هذا البلد (الإيالة ) مقابر للأجانب وللعبيد المسيحيين، ولكن في مرسيليا لا توجد على الإطلاق مقابر للمسلمين، ومن المستحيل حفر خنادق على الشاطئ بين الصخور... توفي تركي من حاشية سفيرنا الموجود في تولون، وخصص حاكم المدينة مكانا لدفنه وهذا ما تم، وفي نفس الليلة فتح سكان من المدينة القبر، وسحبوا منه الجثة ثم أشعلوا النار على بطن، ومعدة الميت وفي اليوم

الموالي انتشر خبر هذا الأمر في كل تولون حتى الضباط رأوا هذه الجثة المحروقة... يموت هنا عشرين عبدا يوميا، فندفنهم في مقبرتهم حسب طقوسهم الدينية، وبقراءة كتبهم وصلواتهم....والشعوب التي تخاف الله لا تقوم بمثل هذه الأفعال.جلالتكم ستعلم أن حكام تولون لم يقوموا بتوقيف الذين قاموا بحرق هذه الجثة فحسب بل، و لم يتكلفوا حتى عناء الاستعلام عنهم ".[77]

**وهكذا منحت مقبرة أخيرا لدفن الأسري المسلمين، ولكنها تعرضت للتخريب عدة مرات كتحطيم أحد أسوارها رغم التدخلات العديدة للداي، وخلفائه؛ حيث لم تكن تحترم المراسيم، والاتفاقات المبرمة حول هذا الموضوع، وهذا رغم تدخلات السلطات العليا في فرنسا، إذ أن الحزب المعادي للمسلمين في مرسيليا كان يستعمل كل الذرائع لجعل هذا المعلم يختفي كالحديث عن فوضي، وجرائم، وتجاوزات يكون المسلمين مسئولين عنها ولكن تدخل السلطة الجزائرية المتكرر كان يمنع حدوث ذلك.[78]**

**ومن ما سبق نلاحظ الفرق الشاسع بين ما كان يحظى به الأسرى العبيد المسيحيون في الجزائر من احترام لخصوصياتهم الدينية سواء كانوا أحياء، أو أموات، وقبل كل شيء الحفاظ على كرامتهم الإنسانية في حين كانت هذه الثوابت تنتهك في حق الأسري المسلمين بالبلاد الأوروبية، وحتى ما تعلق بأبسط الحقوق، فلم تكن تراعى حتى حرمة الموتى منهم.**

**خاتمة:**

**في الأخير يمكن القول أن البانيوات بما تحويه من كنائس، ومستشفيات تقدم معلومات هامة عن حياة الأسري، وتجعلنا نتسأل هل أن حياة الأسري المسيحيين كانت بتلك الأوصاف السوداوية، والمأساوية التي تحفل بها المصادر الغربية، فكما يبدومن الصورة التقريبية التي حاولنا رسمها حول حياة الأسرى في أوساط السجون يمكن القول أن البانيوات كانت مساكنا أكثر من كونها سجونا تقليدية؛ إذ كان يقضي فيها الأسري العبيد لياليهم، بينما كانوا يقضون نهارهم يتنقلون في المدينة للقيام بمختلف الأعمال الموكلة إليهم، أو يستغلون أوقات راحتهم في القيام بما يعود بالنفع عليهم، أو في الترفيه عن أنفسهم، ولعل أدل دليل على ذلك السماح لهم بإيجاد مساحات للترويح عن أنفسهم متمثلة في الحانات التي كانت بغض النظر عن كونها أماكن لشرب الخمر، أماكن للاجتماع، ونسج العلاقات الاجتماعية بين الأسري العبيد.**

**بلإضافة إلى ممارستهم لشعائرهم الدينية، و إحياءهم للمناسبات، و الاحتفالات الدينية بكل حرية، و انتظام على مختلف مستوياتهم و مذاهبهم. و إلى جانب العناية الصحية التي كانوا يحظون بها في إطار السجون التي كانت تتوفر على مستشفيات، وصيدليات مخصصة لهم.**

**و يكفي أن الأسير دراندا قال بعد حديثه عن الحياة في البانيو:" أعزائي القراء لقد بينت لكم ما كان يجري في أوساط العبيد، والسبل التي كان يكسب بواسطتها العديد منهم حريته.....وأنه لا توجد جامعة أحسن من بانيوا الجزائر لتعلم طريقة-أو كيفية - العيش ".[79]**

**الهوامش:**

(1)إن كل من اطلع على المصادر، والمراجع الأجنبية التي تتناول العهد العثماني في الجزائر، ولاسيما ما يتعلق بالسلطة، والحكام العثمانيين لابد أنه اصطدم بأفكار، وأحكام رائجة، ومتشابهة إلى حد بعيد؛ فقد أجمعت أغلب المصادر، والمراجع الأجنبية على وصف العهد العثماني بأبشع الصفات، وقد ميزت هذه الأحكام المغرضة ، والأوصاف السيئة المبالغ فيها الكتب التي ألفت منذ البداية من خلال كتابات الرحالة، والقناصل، و الأسرى المسيحيين، أو الرهبان ، ورجال الدين المكلفين بافتداء الأسرى الذين شحنوا كتاباتهم بمشاعر الكراهية، والعداء للجزائر، والسلطة القائمة بها، وذلك طبيعي في إطار التيار الديني المتعصب للمسيحية لدي هؤلاء ولاسيما خلال القرن 16م(10هـ) ، والقرن 17م(11هـ) بسبب الصراع الذي كان قائما بين الجزائر الممثلة لديار الإسلام، والدول الأوروبية الغربية التي كانت تمثل العداء المسيحي للإسلام، والمسلمين صراع كان ميدانه البحر الأبيض المتوسط خاصة ، وعرف لدينا بالجهاد البحري ضد المسيحيين في حين أطلقت عليه الدول الأوروبية لصوصية البحر. إلا أن هذه الصورة تعمقت، واتخذت أبعادا أخري من خلال كتابات الاحتلال الفرنسي التي عملت على ترسيخها في الأذهان خدمة لمصالحه الاستغلالية، وتشويها لحقائق تاريخنا الوطني، و من بين المواضيع التي نالت حظا واسع من الاهتمام مسألة الأسري المسيحيين، ووضعهم المأساوي بالجزائر.

و يمكن العودة إلى مجموعة من الدراسات النقدية للمواضيع التي نالت اهتمام الغربيين فيما يتعلق بتاريخ الجزائر خلال العهد العثماني على سبيل المثال لا الحصر:-مولاي بلحميسي، موقف المؤرخين الفرنسيين من الجزائر في العهد العثماني، **في مجلة الدراسات التاريخية**، العدد 5، السنة 1408هـ-1988م، معهد التاريخ، جامعة الجزائر –أبو القاسم سعد الله، منهج الفرنسيين في كتابة

تاريخ الجزائر، في **مجلة الأصالة**، العدد 14 و15– السنة الثالثة ربيع الثاني-جمادى الأولى-جمادى الثانية –رجب 1392 هـ/ ماي –جوان -جويلية –أوت 1973 م، وزارة التعليم الأصلى والشؤون الدينية، الجزائر، 1973

– عائشة غطاس، تقييم بعض المصادر الفرنسية لسياسة الجزائر الخارجية (في العهد العثماني )، **في مجلة الدراسات التاريخية**، العدد 5، السنة 1408 - 1988 م، معهد التاريخ، جامعة الجزائر

(2) ما لم يشر إليه دان، وتجاهله هو أن المعاملة السيئة التي كان يمكن أن يتعرض لها الأسري المسيحيين لم تكن في واقع الأمر سوي رد فعل مشروع لما يقوم به الأسري المسيحيين أنفسهم، وفي الحالات القصوي كالمساس بالإسلام، أو محاولة تنصير المسلمين أو محاولات الفرار، وليس أفضل من شاهدة شاهد من أهلها؛ فقد ذكر لوجي دوتاسي في هذا الشأن بعد أن حصر العبيد المسيحيين في صنفين عبيد الحكومة، وعبيد الخواص"لا هؤلاء، ولا أولئك كانوا معرضين في مدينة الجزائر للإساءات، و المضارات المروعة، والمفزعة التي يريد أن يقنعنا بها حتى الأسري أنفسهم، كما أن المعاملة، والوضعية الطيبة، والحسنة للأسري العبيد كانت مرتبطة بسلوكهم، وتصرفاتهم، وعقلية، أو طبع سيدهم، ولكن كان من النادر أن يتشددوا اتجاههم، أو أن يثقلوا كاهلهم بالعمل بما لا طاقة لهم به؛ فقد كانوا يخشون أن يلقوا بهم من خلال هذه المعاملة بين براثن بعض الأمراض التي كان يمكنها أن تأخذهم منهم، بل كان من الممكن مشاهدة معاناة الأسياد الذين كانوا في انتظار مبلغ الفدية المحتملة يتحملون أخطاء عبيدهم، وطبعهم السيئ بكثير من الصبر ما لم يكن يفعل في أوروبا تجاه الخدم الأحرار". و يشير لوجي دوتاسي في محل آخر أن أسيادهم كانوا يعاملونهم بكثير من التسامح في بعض الأحيان لدرجة أن الأخطاء التي كانت تستحق أقسي، وأكبر

العقوبات كان العقاب فيها جد خفيف.و انتهى لوجي دوتاسي إلى تسأل مفاده هل يمكن لعقوبات مستحقة فعلا أن تصور، وتمرر على أنها معاملات وحشية؟

Laugier (de Tassy), Histoire des Etats Barbaresques qui exercent la Piraterie, Paris, 1757, T2
p pp30-.98-99

(3) Grammont (H-.DE), La Course L'esclavage et La Rédemption a Alger, paris, 1885 p.63
Voir aussi Chevalier (Corinne), Les trente Premières Années de l'Etat d'Alger (1510-1541) OPU Alger, 1988. p.56

(4) Grammont, op.cit,pp. 64 ,65 Voir aussi Corinne Chevalier, op.cit,p.56

(5) Paul mombelli, Autobiographie du dernier roi d'Alger. Site internet:
htt p://www.Google .fr .dernierroialger .caloucaero .net, chapitre 5" Bagnes d'Alger "

(6) Haedo (le père Diégo de), topographie et Histoire Générale d'Alger, traduit de l'Espagnol par(6) MM. Le Dr Monnereau et A. Berbrugger, in **Revue Africaine**, Alger ,1875 tom 15, p.394

(7) MASCARENHAS (Joao de), Esclave à Alger Récit de captivité de 1621à 1662 Traduit du Portugais et annoté par Paul Teyssier, Editions Chandeigne ,Paris,1998 , p. 71

(8) Dan (Père François), Histoire de Barbarie et de ses Corsaires, Pierre Ricolet imprimeur et
Librairie du Roy 2e édition, Paris, 1637p. 412

(9) وكان يعتبر أهم شارع، أو نهج في مدينة الجزائر، وكان يقع في القسم السفلى، وهو نهج باب عزون- باب الواد (لأنه كان يمتدد من باب عزون شرقا وصولا إلى باب الواد غربا)، وكان يعرف بالنهج الكبير، أو نهج السوق الكبير؛ حيث كان يشكل سوقا محاطة من كل جانب بعدد كبير من الدكاكين، والحوانيت

التي كانت تباع فيها مختلف السلع، والبضائع. وكان الشارع الأكثر عرضا، ومساحة في المدينة، وقد كان يضيق قليلا في بعض الأماكن ليتسع مجددا في جهات أخري أنظر حوله:

Haedo ( le père Diégo de), "Topographie …" in-**R.A,** 1870, T14,p.431 et Avity (Pierre.D'), Description Générale De L'Afrique Seconde partie Du Monde Avec tous ses Empires, Royaumes,Etatset Républiques, Chez Claude Sonnius, à Paris 1637 ,p 170

(10) Grammaye (Jean-baptiste) « Journal de jean…. »,Traduit et commenté par AbdelHadi ben(10) Mansou r dans « Alger 16-17 siècle », les éditions du cerf, paris, 1998, p.155

(11) ibid, p.155

**(12) القسم الأكبر من الأوروبيين المسيحيين المتواجدين في مدينة الجزائر خلال القرنيين 10هـ (16م)-11هـ (17م)؛ أجبروا على الإقامة فيها إجبارا، وهؤلاء هم الأسري الذين كانوا يقعون في قبضة البحارة الجزائريين، ويبقون في الأسر طالما لم يحصلوا على حريتهم إما عن طريق الفدية، أو المبادلة، أو الدخول في الإسلام ليصبحوا أعلاجا، وهؤلاء الوافدون على الجزائر من مختلف المدن والجهات الأوروبية كانوا على الديانة المسيحية. فقد كانوا يندرجون في إطار الغنائم المختلفة التي كانت تخلفها المعارك البحرية والغارات البحرية، والتي كان يتم بيعها في مدينة الجزائر في سوق يعرف بسوق الباديستان - كان يقع في وسط المدينة بالقرب من قصر الجنينة.-وكانوا يتفرعون إلى قسمين: عبيد المخزن(الدولة ) الذين كانوا يستخدمون في الأشغال العامة، و عبيد الخواص الذين كانوا يشترون لخدمة المشترين أي الملاك ويقومون بمختلف الأعمال التي يكلفون بها من طرف أسيادهم كالخدمة في بيوتهم فيقومون بأعمال الصيانة، والتنظيف، واقتناء حاجات الدار، و**

**تبييض البيوت بالجير، وجلب المياه يوميا إليها، وبالطهي وحراسة الأطفال، أو العمل في البساتين، والجنائن، وما شابه ذلك، وغيرها من الأعمال التي يكلفون بها من طرف أسيادهم.**

**و للحصول على معلومات أشمل حول المراحل التي يمر بها الأسري المسيحيين منذ لحظة أسرهم إلى غاية عملية بيعهم والطريقة المتبعة في ذلك وتصنيفهم يمكن العودة إلى المصادر الآتية –على سبيل المثال لا الحصر -:**

joâo Mascarenhas, op.cit, p.52,p 53,p.56, p.74 et Laugier (de Tassy) op. Cit, T2, p.22, p.23, p.24

(13) Haëdo, (F.D), "Topographie …" in-**R.A,** 1871, T15,p.395

**(14) المجدافين من الأسرى المسيحيين كانوا يقومون بالتجديف مرة، أو مرتين في السنة على ظهر إحدى السفن الجزائرية عكس ما كان سائدا في البلاد المسيحية؛ حيث كان الأسري المسلمين مجبرين على التجديف باستمرار، وكانوا خلالها عرضة لأعمال في قمة العنف، والوحشية، فعلى سبيل المثال نسجل إقدام ربان سفينة كتالوني على تسمير أفخاذ مجدافيه المسلمين على مقاعد التجديف نظرا لعدم رضاءه عن الجهد الذي بذلوه خلال عملية ملاحقة إحدى السفن، وكانوا عرضة أيضا لضربات موجعة تنهمر على ظهرهم العاري لأتفه سبب. في حين أن عملية التجديف في السفن الجزائرية كانت كما هو معلوم تتطلب جهدا كبيرا، ولكنها لم تكن مرفقة بالأعمال الوحشية الممارسة في أوروبا، والدليل على ذلك امتهان بعض السكان من القبائل لها، وهو ما ذكره هايدو في القرن 10هـ(16م) أن رياس السفن كانوا يقدمون أجرة تقدر بـ 12 إيكو-عملة نقدية - ذهبي لمجدفين مور-يقصد بهم المسلمين - من أبناء البلد كانوا يكسبون حياتهم بالتجديف كمجدافين متطوعين عن كل سفرة كانوا يقومون بها.ولابد من الإشارة إلى أنه كان يتم فحص المجدفين من الأسري المسيحيين بدقة، وعناية كبيرة للتأكد من عدم إصابة أي منهم بأمراض معدية**

**كما كان يحرص على اغتسالهم جيدا، وحلق شعرهم، وذكر دراندا في القرن 11 هـ (17م) أنه كان يوزع على كل عبد موجه للتجديف خمسة أمتار من قماش الكتان ليصنع قميصا، وسروالا لنفسه، وذلك بأمر من الباشا مبينا أنه تلقى حصته كالآخرين وهو الشيء الذي أسعده نظرا لأنه لم يكن يملك إلا قميصا وسخا، وممزقا ومليء القمل..... .حول هذا أنظر:**

43 et .42,p."Topographie …" , **in-R.A**, T15, p Haëdo, (F.D),

Aranda(Emmanuel d') :Relation de la captivité et liberté du voir imprimeur, Sieur d 'Aranda, Chez Jean Momart Moulay Belhamissi, Les Captifs 16 et.15,p.Bruxelles,1662,p algériens et l'Europe Chrétienne, Entreprise Nationale du Livre 40.1988,p Alger

Paul Mombelli, op.cit,

(15) " Bagnes d'Alger "chapitre 5

(16)Laugier (de Tassy) op.cit, T2, p.24

(17)Haëdo, (F.D),"Topographie …", **in-R.A,** 1871, T15, p.463

(18) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري (16 -20 م)، الطبعة الثانية، الجزء الأول المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1045 هـ/1985 م ص45

(19) Haëdo, (F.D),"Topographie …" **in-R.A** , T14, p.519

ُ(20) Emmanuel Roblés, « L'Algérie de Cervantes », in-**revue.Algéria**, Edition de l'office d'Action Economique et Touristique(OFALAC) , Alger, XXVII année, Avril, 1959, N°57,p.30

(21)Haëdo, (F.D), "Topographie …" , **in-R.A**, T15,p.395

(22)Mascarenhas (Joao de), op.cit, p.74

(23) Grammont (H-DE), op.cit, p.63

(24)Corinne Chevallier, op.cit, p.57

(25) لغة الفرنكا والتي تأكدت في أوساط مجتمع مدينة الجزائر بداية من القرن 11هـ(16 م) وقد اتفق كل من هايدو في أواخر القرن 10هـ (16م)، والأب دان في القرن 11 هـ (17م) على وصف هذه اللغة بمزيج من مختلف الكلمات الأسبانية والإيطالية بالنسبة لمعظمها بالإضافة إلى بعض الكلمات البرتغالية ، و تضاف إلى كل هذا المزيج بعض الكلمات العربية، لغة الفرنكا عبارة عن تجميع للمصطلحات، والكلمات ، والتعبيرات دون الاهتمام فيها بحالات الصرف، ولا بالشكل ، ولا بالأزمنة.ويمكن أن نقول أن هذه اللغة كانت بمثابة لغة هجينة، فلم تكن اللغة الأم لأي أمة من الأمم بل كانت تستعمل كلغة ثانية بالنسبة لجميع سكان مدينة الجزائر إلى جانب لغتهم الأم.وحول هذا الموضوع يمكن العودة إلى – على سبيل المثال لا الحصر -:

Haëdo, (F.D), "Topographie …", in, **R.A**, 1871, T15, p. 94 voir aussi Dan, op.cit, pp.92, 93, et joâo Mascarenhas, op.cit,p .203

(26) Aranda (Emmanuel d'):Relation de la captivité et liberté du Sieur d'Aranda chez Jean Momart imprimeur, Bruxelles, 1662, p.21

(27) ibid,p. 238

(28) ibid, p.p. 238,239

(29) عبد القادر حيلمي، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830، الإسلامي الجزائر1972 ص 269 ط1المطبعة العربية لدار الفكر

(30) Aranda (Emmanuel D'), op.cit, p.p.236, 237

(31)Laugier (de Tassy), op.cit, T2, p.25

(32)DAN (Père François), op.cit, p.89

(33) p. p, 66-67 Grammont (H-.DE), op.cit,

(34) Corinne Chevalier, op.cit, p.p.56- 57

(35)Grammont ( H-DE), op.cit ,p. 69

(36)ARANDA (Emmanuel d'), op.cit, p.20

(37) جون.ب.وولف، الجزائر و أوروبا (1500-1830)، ترجمة و تعليق د.أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب 1986، ص 230

(38) Fisher ( Sir Godfrey), Légende Barbaresque :Guerre, Commerce et Piraterie en Afrique du Nord de 1415 a1830 Traduit et Annoté par Frida Hellal ,office des publications Universitaires, Alger ,2000, p.156

(39)67 Aranda (Emmanuel D')op.cit, p.

(40) Joâo Mascarenhas, op.cit,p. 202

(41) طاهر المكي، "سرفانتس، قمة الأدب الإسباني كان أسير في مدينة الجزائر"، ماي– السنة الثانية ربيع الثاني- جمادى الأولى 1392 هـ/ **الأصالة، في مجلة** م، العدد الثامن –عدد ممتاز خاص –، وزارة التعليم الأصلي 9721 جوان والشؤون الدينية، الجزائر 1972، ص 57

(42) ُEmmanuel Roblés, op.cit, p.30

(43) الطاهر المكي ، مرجع سابق، ص 57

(44) عائشة غطاس، سياسة العثمانيين الدينية في الجزائر (1516- 1830 )، مذكرة سنة أولى ماجستير، إشراف أد.مولاي بلحميسي ، جامعة الجزائر ، السنة الجامعية 1981 -1982 ، ص 32

(45)237 Aranda (Emmanuel -D'), op.cit, p.

(46) Ibid, p.236

(47) Haëdo, (F.D), "Topographie …" in-**R.A,** 1871, T15, p.394

(48) Ibid, T15, p.394

(49) Ibid, T15, p.394

(50) Ibid, T15, p.394

(51) Garrot (Henri), Histoire Générale de l'Algérie**,** Imprimerie Crescenzo Pierre, Alger,1910,p.30

(52)240 ARANDA (Emmanuel d'), op.cit, p.

(53) 124Ibid, p.

(54) Grammaye (Jean-baptiste), op.cit, p.159

(55)74 op.cit, p. Joâo Mascarenhas,

(56)74 Ibid, p.

(57) Ibid, p. 71

(58) بيار غينون، سرفانتيس، سلسلة أعلام الفكر، ترجمة المحامي حسيب نمر، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت فبراير1979، ص66

(59) Aranda (Emmanuel- D), op.cit, p.p , 5756

(60) Berbrugger (André),"Charte des Hôpitaux Chrétiens d'Alger", in **Revue Africaine,** 1864 T8pp.234, 235

(61) 485 Dan (Père François), op.cit, p.

(62)485 ibid, p.

(63) Joao Mascarenhas, op.cit, p.63

(64) 158-7 15 Grammaye (Jean-Baptiste), op.cit, p.p.

(65)158 Ibid, p.

(66)158 Ibid, p.

(67)Berbbruger (A), op.cit, p.236

(68)Ibid, p.237

(69)حول العملة المستعملة في مدينة الجزائر، وأنواعها، وقيمتها، وتطورها خلال العهد العثماني أنظر الدارسة المفصلة الآتية:

Merouche menouar, Recherche sure l'Algérie a l'époque Ottomane, monnaies, prix et revenus 1520-1830, Bouchène, paris ,2002

(70) Berbbruger(A) , op.cit ,p. 237

(71) ibid**,** p.238

(72) ibid**,** p.238-239

ibid**,** p.239 (73)

(74)Laugier de Tassy, op.cit, T2, p.44

(75)Berbbrugger, op.cit, p. 236

(76)Laugier de Tassy, op.cit, T2, p.34, p.44

(77) MoulayBelhamissi, Les Captifs algériens et l'Europe Chrétienne, Entreprise Nationale du Livre Alger, 1988, p.60

(78) ibid.**,** p.61

(79)Aranda (Emmanuel -D'), op.cit, p.239